

التعددية الدينية

قراءة في المعنى



محاضرات لسماحة الشيخ حسن الصفار

التعددية الدينية

قراءة في المعنى

إعداد: مهدي صليل

ح مهدي جعفر صليل، ١٤٣٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

صليل، مهدي جعفر

التعددية الدينية.. قراءة في المعنى / مهدي جعفر صليل -

القطيف، ١٤٣٦هـ

٦٤ ص، ..سم

ردمك: ٣-١-٩٠٦٦٦-٩٠٣-٦٠٣-٩٧٨

١- الديانات المقارنة ٢- الإسلام والديانات الأخرى

٣- الفكر الشيعي أ. العنوان

١٤٣٦/٦٢٣٤

ديوي ٢٩١

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٦٢٣٤

ردمك: ٣-١-٩٠٦٦٦-٩٠٣-٦٠٣-٩٧٨

مُحْفَوظٌ
جَمِيعُ حَقُوقِ

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

القطيف - المملكة العربية السعودية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾

[سورة المائدة، الآية: ٤٨].



تقديم

يعتبر الدين والتدين من أقوى وأهم العوامل المحركة للسلوك البشري، فالإنسان يسعى ويتحرك في الحياة بدوافع فسيولوجية ونفسية متعددة، لكن الأفكار المرتبطة بالدين والعقيدة تتغلب على ما سواها من المؤثرات والدوافع، مما يحتم على المهتمين بالإصلاح والتغيير في العالم أن يولوا هذا الموضوع أهمية بالغة، حتى لا تتحول الدوافع الدينية إلى عامل صراع بين بني البشر.

فالعالم اليوم يعيش حالة من الاضطراب والصراع بسبب الفهم الخاطئ للدين، واستغلال الجهات السياسية لحالة الجهل بحقيقة التدين.

وهذه الصفحات التي بين يديك - عزيزي القارئ - مجموعة من الأفكار المهمة في مجال إيضاح

حقيقة التدين، وإمكانية التعايش مع التعدد الديني والفكري، قدمها سماحة الشيخ حسن الصفار في ثلاث محاضرات متفرقة، وقد قمت بجمعها وترتيبها لتأخذ طريقها إلى شباب الأمة، ولتنتظم مع مؤلفات سماحته المهمة في هذا المجال، فقد كتب عدداً من المؤلفات في التعددية والحوار هي من أوائل الأطروحات الرائدة،

منها على سبيل المثال لا الحصر:

- ١ . التعددية والحرية في الإسلام.
- ٢ . التسامح وثقافة الاختلاف.
- ٣ . الحوار والانفتاح على الآخر.
- ٤ . السلفيون والشيعة نحو علاقة أفضل.
- ٥ . التنوع والتعايش.

يقول الشيخ محمد مهدي شمس الدين (رحمه الله) في تقديمه للطبعة الثانية لكتاب (التعددية والحرية في الإسلام):

«وقد قرأت هذا الكتاب، وأهنئ فضيلة الشيخ الجليل على توفيق الله له في إنجاز هذا العمل،

الذي يشق طريقاً في مجال غير مطروق في الأبحاث
الفقهية والفكرية الإسلامية.

أستطيع أن أقول: إن فضيلة الشيخ الجليل قد وفق
توفيقاً كبيراً في إثارة الأسئلة الصعبة في هذا الحقل،
ووفق إلى حدٍ كبير في تقديم الإجابات الملائمة عن
هذه الأسئلة.

ويضيف (رحمه الله): الكتاب فيما أعتقد يلبي
حاجة ماسة ومتنامية في مجتمعاتنا الإسلامية التي
تعصف بها خلافات مذهبية وطائفية^(١).

فما أحوجنا اليوم إلى الفهم الصحيح للدين،
الذي يوسع أفق التفكير، ويشرح طبيعة التدين، ويقرأ
الفكر الآخر بشيء من الموضوعية، وعندها يمكن
أن نتخلص من كثير من حالات التشنج والحساسية
المفرطة تجاه الآخر.

وقد استفدت شخصياً من أفكار سماحته، فهو
يفتح جميع الملفات المغلقة، ويوجب عن كل
الأسئلة الحرجة، بما يشعر الإنسان بالاطمئنان

(١) التعددية والحرية في الإسلام، الطبعة الرابعة ٢٠١٠م،
(بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي).

والراحة النفسية، بحيث يقترب - تلقائياً - من جميع الناس ويتفهم دوافعهم وقناعاتهم.

وأشيد في ختام هذا التقديم بسماحة الشيخ حسن الذي يتميز بمعالجة قضايا الساعة ويُنظر لها بأفكار عملية تلامس الواقع من خلال تأصيل عميق، يرتكز على آيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول الأعظم وسيرته العطرة، وتوجيهات أئمة الهدى عليهم السلام، إضافة إلى انفتاحه على التجارب الإنسانية، بما يحقق الواقعية في معالجة القضايا المعاصرة، وهي المهمة الصعبة التي يمتحن فيها علماء الدين على مرّ العصور.

مهدي صليل

١٣ / ٥ / ١٤٣٦ هـ

في معنى التعددية الدينية

ماذا يعني مصطلح (التعددية الدينية)؟

التعددية: من التعدد، وهو التنوع والتكثُر، فتارة تكون أمام خيار واحد، وتارة تكون أمام خيارات متعددة، والتكثُر والتنوع في كل شيء يطلق عليه (تعددية).

الدين: هو ما يدين به الإنسان من رؤية نحو الكون والحياة، نحو وجوده ومصيره، فالإنسان باعتباره كائناً عاقلاً مفكراً؛ فإنه يفكر ويتساءل عما أتى به إلى هذه الحياة، وعن سبب مجيئه، وعن مصيره، وما يتفرع عن ذلك من أسئلة، والإجابات عن هذه التساؤلات، والالتزامات التي قد تنتج عنها في حياة الإنسان، كالعبادات

والطقوس والأنظمة السلوكية؛ كل ذلك يشكل ما يطلق عليه ديناً، فحينما نقول التعددية الدينية، نعني تنوع وتعدد رؤى الناس فيما يعتقدونه ديناً.

تعدد الأديان

ليس هنالك دين واحد لأبناء البشر، ولا رؤية واحدة تتفق على جميع التفاصيل في الإجابات عن التساؤلات التي تنتصب أمام عقل الإنسان، أو تتفق في برنامج الالتزامات التي تكون على الإنسان في هذه الحياة، فواضح من خلال تاريخ البشر أن هناك تنوعاً وتعددًا فيما يدين به الناس، هناك عدد من الأديان، وفي داخل كل دين هنالك عدد من المذاهب، وداخل كل مذهب هناك عدد من المدارس، إذًا هنالك تعددية فعلية في التوجهات الدينية للبشر، ويمكن مراجعة الإحصائيات التي تذكرها مراكز الأبحاث المتخصصة حول عدد الأديان والمذاهب وأتباعها في العالم، فهناك عشرات الأديان ومئات المذاهب التي يقتنع أتباعها بصحتها وأحقيتها.

لماذا تتعدد الأديان والمذاهب؟

لماذا لا يكون الناس كلهم على دين واحد
ومذهب واحد؟!

هذا تساؤل مطروح، عادة ما يطرحه الباحثون
ومؤرخو الأديان والمذاهب ومؤرخو الاجتماع
البشري، وهناك عدة تفسيرات لهذه الظاهرة، بعضها
واقعية إيجابية، وبعضها تشاؤمية.

التفسير الأول: التعدد مؤامرة على الدين

هناك من يفسر هذه الظاهرة بوجود مؤامرات، أي
إن هنالك من يتآمر على الدين الحق، ويختلق طرقاً
أخرى.

في مقابله؛ بسبب الخبث ولأجل المصالح
والأغراض، وإلا فإن الدين الحق واحد، والمذهب

الحق واحد، وهو الذي بعث الله به الأنبياء، وهو ما تهدي إليه الفطرة والعقل.

فعلى سبيل المثال يعتقد اليهود أن النصرانية جاءت نتيجة تآمر، والمسيحيون يعتقدون أن بقاء اليهود على يهوديتهم هو نتيجة تواطؤ، والمسلمون يعتقدون في اليهودية والنصرانية كذلك.

ويمكن الاستشهاد بمثل قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبَسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٧١].

وداخل الأديان أيضاً؛ الشيعة يرون أن الحق في إمامة أهل البيت واضح، لكن هناك من كان له غرض ومصلحة فأخذ طريقاً آخر، والسنة يرون نشوء الفرق والمذاهب في الأمة أمر مصطنع، أحدثه أشخاص مغرضون مثل ابن سبأ.

هذا هو التفسير بالمؤامرة، التفسير الذي يعتقد أنه لا ينبغي أن يكون تعدد في الأديان والمذاهب، فالحق واضح وينبغي أن يُجمع عليه كل البشر، لولا وجود المؤامرات من قوى منحرفة مصلحة تمنع اجتماع الناس على الحق.

التفسير الثاني: التعدد عناد أمام الحق

هناك من يفسر وجود التعددية الدينية على أنها بسبب حالة العناد وتعنت أكثرية الناس تجاه الحق رغم اتضاحه، ويستشهد أصحاب هذا الرأي ببعض الآيات القرآنية:

﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [سورة المؤمنون، الآية: ٧٠].

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: ٧٣].

﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٨٩].

فوجود وظهور مذاهب أخرى هو بسبب العناد، وإلا فالحق واضح، حسب هذا التفسير.

التفسير الثالث: التعددية انحراف فكري

تفسير ثالث يرى أن غالبية البشر منحرفو الفكر والفهم، وسيئو التفكير، لسبب أو لآخر، ونتيجة لتأثيرات عدم الوعي لا يدركون الحقائق، ويتبعون الأوهام فيتعلقون بها، ويستشهد أصحاب هذا التفسير ببعض الآيات القرآنية، كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة سبأ، الآية: ٢٨].

وكقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [سورة

المائدة، الآية: ١٠٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [سورة يونس، الآية: ٣٦].

فالمسألة لا تنطلق من العناد تجاه الحق، ولا من الوقوع في خطط المتآمرين على الحق، وإنما هي ناتجة من جهل أكثر الناس بالحق، لتقصيرهم في استخدام عقولهم، وخطأ نمط تفكيرهم.

التفسير الرابع: التعددية اتباع للعواطف

وبحسب هذا التفسير فإن السبب لاتباع الناس ديانات ومذاهب مختلفة هو تأثير العواطف والانفعالات، كتأثير الانتماء لعائلة أو لبيئة اجتماعية، تجعل الإنسان لا يتأمل كثيراً في الدين والمذهب الذي يؤمن به، وإنما يتبع أسرته ومجتمعه اتباعاً عاطفياً انفعالياً.

ويمكن الاستشهاد على هذا التفسير بآيات قرآنية كقوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [سورة الزخرف، الآية: ٢٢].

التعددية طبيعة بشرية

وفي مقابل تلك التفسيرات التشاؤمية، هناك نظرة إيجابية، تُفسّر هذه الظاهرة بالاختلاف الطبيعي بين بيئات الناس وظروفهم، فكل إنسان يجد نفسه في بيئة وظرف معين، يدفعانه نحو قناعات معينة، إضافة إلى اختلاف اجتهادات الناس، خاصة في قراءة النصوص الدينية، فليست المسألة دائماً مسألة عناد أو انحراف فهم أو غلبة عاطفة أو تأمر، بل هذا ما قادهم إليه تفكيرهم في هذه الآية أو تلك الرواية، فتنوع الأديان والمذاهب سببه عند غالبية الناس هو اختلاف البيئات والظروف والاجتهادات، دون إنكار تأثير العوامل السابقة على أوساط من أبناء البشر.

ونجد في القرآن الكريم آيات كثيرة تصف أكثر المخالفين للحق بأنهم لا يعلمون، وأنهم غافلون،

ويستوحى منها أن القلة من مخالفني الحق يتعمدون المخالفة بسبب عنادهم وسوء نياتهم ومقاصدهم، بينما الأكثرية تخالف الحق بسبب جهلها به وأن كانت قد تتحمل مسؤولية التقصير في البحث.

■ يقول تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [سورة الأنبياء، الآية: ٢٤].

■ ويقول تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأنعام: الآية: ٣٧].

■ يقول تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الجاثية: الآية: ٢٦].

■ ويقول تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٠٢].

■ ويقول تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٦].

وقد ورد مثل هذا التعبير في عشرات الآيات الكريمة.

بينما ينص القرآن الكريم على أن هناك من يخالف الحق متعمداً، فمخالفته عن علم وقصد.

يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية ١٤٦].

لاحظوا الدقة في اتهام فريق منهم بالتعمد في
مخالفة الحق.

ويقول تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ﴾ [سورة المجادلة، الآية ١٤].



من الاحتراب الديني إلى التسامح

أياً كانت الأسباب، فإن البشر يعيشون حالة التنوع في الأديان والمذاهب، وقد عانت البشرية كثيراً من التعامل السلبي مع هذا التنوع والتعدد، فأهل كل دين وأهل كل مذهب يحاولون فرض دينهم ومذهبهم على الآخرين، والآخرين يرفضون؛ لأنهم يتمسكون بدينهم ومذهبهم، فتحدث الحروب والنزاعات، كما أن بعض الجهات تحاول أن تستغل الدين والمذهب وتهمين باسمه على الآخرين، وتحاول النيل من حقوقهم والاعتداء عليها، لذلك عاشت البشرية صراعات ونزاعات طوال تاريخها، وكان الفهم الخطأ لطبيعة الاختلاف سبباً رئيساً من أسباب الصراعات والنزاعات.

فقد عاشت أوروبا في القرون الثلاثة الأخيرة

حروباً دامية، قُتل فيها مئات الألوف من الناس، وانتهكت فيها الحقوق، وحدثت مشاكل كثيرة داخل المجتمعات الأوروبية، وغالبًا ما كان اختلاف الدين والنزاعات الدينية سبباً في تلك الحروب أو عنواناً لها، وهذا ما دفع المفكرين في أوروبا للتفكير في هذا الموضوع، وتساءلوا بالبحاح: إلى متى والناس يعيشون هذه الحروب والصراعات؟

وبدأ يسود تفكير عقلائي في أوروبا، لتجاوز تلك الصراعات والخلافات الدينية، وانبثقت عدة مفاهيم، منها مفهوم (الزرعة الإنسانية) ومفهوم (حقوق الإنسان) ومفهوم (التسامح)، ومن تلك المفاهيم التي انبثقت: مفهوم (التعددية الدينية) وتبنى هذا المفهوم جمع من المفكرين في أوروبا، ونظروا له، وتحدثوا عنه تحت هذا العنوان، أو عنوان (البلورالية) وأصل كلمة (بلورال) الاعتقاد أن بإمكان الإنسان في الكنيسة أن يقوم بعدة مناصب ومهام، فهو اصطلاح كنسي، فالذين رأوا إمكانية تعدد المناصب للشخص في الكنيسة سموا بالبلوراليين، ثم انتقل هذا المفهوم إلى الفلسفة وإلى الحياة العامة .

ومن أشهر المنظرين لمفهوم التعددية الدينية هو البريطاني (جون هيك) في كتابه (فلسفة الدين) الذي طبعت طبعته الأولى سنة ١٩٦٣ م، ثم توالى طباعة هذا الكتاب، وأصبحت له شهرة كبيرة، وانتقلت هذه الفكرة إلى العالم العربي والإسلامي، فتبنى هذا المفهوم بعض المفكرين وكتبوا ونظروا حوله، مثل: محمد أركون، والدكتور عبد الكريم سروش، وغيرهما.

ومن الكتب المفيدة في معالجة هذا الموضوع كتاب (التعددية الدينية - نظرة في المذهب البلورالي)^(١) للأستاذ الشيخ حيدر حب الله، وهو من المصادر التي استفدنا منها في الإعداد لهذه المحاضرة.

(١) الطبعة الأولى ٢٠٠١ م، (بيروت: دار الغدير).



فلسفة التعددية وتجلياتها

هنالك عدد من المعاني التي يطرحها القائلون بالتعددية الدينية، نركز على أهمها، وهي ثلاثة معانٍ:

المعنى الأول: تعدد الحقيقة

بمعنى انبساط الحقيقة في مختلف الأديان والمذاهب وعدم انحصارها في دين أو مذهب واحد. حيث يتحدث من يتبنى هذا المعنى عن احتمال الحقانية في الأديان والمذاهب المختلفة، ونسبية الحقانية فيها، أي إن الحق والصواب ليس منحصراً بالمطلق في دين أو مذهب واحد، وأن بقية الأديان والمذاهب باطلة تماماً، بل هنالك احتمال لانبساط وانتشار الصواب والحقانية في جميع الأديان والمذاهب، فليس هناك دين أو مذهب يتمحض للحق والصواب، ودين آخر أو مذهب آخر يتمحض

للباطل والخطأ، وإنما كل دين أو مذهب فيه نسبة من احتمال الحق .

ويقول أصحاب هذه النظرية : إن كل الأديان والمذاهب لا تقطع بأن كل تفاصيل دينها ومذهبها حق، كيف والاختلافات داخل دينها أو مذهبها الخاص موجودة، فهناك مساحة معينة يقطع أصحاب كل دين أو مذهب بصوابها وصحتها في دينهم و مذهبهم، وهناك مساحة يحتملون فيها الصحة والخطأ تبعاً لاختلافاتهم الداخلية، ويصنفونها ضمن عنوان المسائل الظنية، التي يوجد فيها نقاش وخيارات وآراء، كما أن أتباع الأديان والمذاهب يعترفون بوجود أشياء دخيلة في أديانهم ومذاهبهم، حيث يوجد تزوير وتحريف وموضوعات، فلا يوجد مسلم يقول بأن كل ما في تراث الإسلام بمختلف مذاهبه حق وصواب، نعم قد يوجد اختلاف في نسبة التحريف وكيفية دخوله وغير ذلك من التفاصيل .

ويقول أصحاب هذه النظرية إن هنالك مفاهيم وقيمًا مشتركة بين مختلف الأديان والمذاهب، سواء في الجانب الأخلاقي، أو في الجانب الاعتقادي،

وهذا يدل على أن هناك نسبة من الحق عند مختلف الأديان والمذاهب، وهذا دليل على (النسبية) في الحقانية، بل كان بعضهم قديماً يتحدث عن أن البشر يؤمنون بحقائق واحدة ولكن يختلف تعبيرهم عن هذه الحقائق، تماماً كاللغات، ألسنة مختلفة تعبر - في كثير من الأحيان - عن أمر واحد، وهكذا الحقائق الدينية، ترجع إلى أصل واحد، ولكن تعبيرات البشر عنها مختلفة، فالبوذي يعبر عن الله بطريقة، والهندوسي بأخرى، وهكذا اليهودي والنصراني والمسلم وغيرهم، لكن الجوهر قد يكون واحداً مشتركاً، وإخوان الصفا المعروفون كانوا يؤكدون في رسائلهم على هذا المعنى، وتجد في كلماتهم التعبير بمثل هذه العبارة - «الحق موجود في كل دين، والحق يجري على كل لسان».

أو كما قال الشاعر :

عَبَارَاتُنَا شَتَّى وَحُسْنُكَ وَاحِدٌ

وَكُلُّهُ إِلَى ذَاكَ الْجَمَالِ يُشِيرُ

فليس الحق منحصرًا بدينٍ واحدٍ من بين جميع الأديان، أو مذهب من بين المذاهب، بل الحقيقة

متوزعة بين مختلف الأديان والمذاهب بنسب مختلفة، هذا هو رأي انبساط الحقيقة، في مقابل انحصار الحقيقة، الذي يتحدث عنه أتباع الأديان، فغالبا أتباع الأديان يرون أن الحق في دينهم فقط، وأن بقية الأديان أو المذاهب لا تمتلك شيئاً من الحق، يقول تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١١٣]، وكذلك بين المذاهب الإسلامية، نجد حالة التكفير لصاحب الرأي الآخر، وللمختلف مذهبياً، ورميه بالشرك أو الابتداع .

المعنى الثاني: المعذورية وإمكانية الخلاص في الآخرة أصحاب هذا الرأي لا يؤمنون بانبساط الحقائقية في كل الآراء والمذاهب (كما في المعنى الأول)، لكنهم يقولون: إنه حتى مع فرض انحصار الحق والصواب في دين ومذهب واحد، هل الخلاص الأخرى منحصر بأصحاب الدين أو المذهب الحق؟!

نحن نعرف أن الأديان تستهدف فوز الإنسان ونجاته في الآخرة .

الانحصاريون يدعون أن الجنة هي لجماعتهم فقط، أما باقي الناس فكلهم في النار، يتحدث القرآن الكريم عن هذه المقولة عند اليهود والنصارى، يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١١١].

وينقلون عن أحد الدعاة المسيحيين في القرن الثالث عشر قوله «إن نسبة الناجين - أي الناجين من النار - يوم القيامة لا تتجاوز الواحد من كل مئة ألف شخص»، وأما البقية فمصيرهم إلى النار وبئس القرار. ونجد هذا أيضًا عند أصحاب الأديان وأصحاب المذاهب، الذين تعتقد كل طائفة منهم أنها الفرقة الناجية، كما جاء في الحديث المروي عن النبي ﷺ أنه قال: «تفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلهن في النار إلا واحدة»^(١) وكل جماعة - قلو أم كثروا - يعتقدون أنهم هم الفرقة الناجية وبقية الفرق من المسلمين في النار، فضلًا عن غير المسلمين.

(١) مجمع الزوائد للهيتمي. ج ١، ص ١٨٩. ومثله في الخصال، ص ٥٨٥، حديث ١١.

أما أصحاب التعددية بهذا المعنى الثاني فلا يقبلون هذا الكلام، بل يقولون إن مخالفينا وإن لم يؤمنوا بالحق، لكنهم غير معاندين.

لعلهم لم يؤمنوا بالحق؛ لأن الحق لم يصلهم ولم يتضح لهم، فكيف يدخلهم الله النار وهو القائل ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء الآية: ١٥]، وهو القائل أيضًا ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٤٩]، إنهم حتى لو كانوا على باطل، لكنهم لم يعرفوا الحق وانحرفوا عنه، وإنما عاشوا في بيئة ووضع جعلهم لا يكتشفون الحق، فكيف يكون هؤلاء في النار؟!

وللإمام الخميني -رحمة الله عليه- كلمة جميلة في هذا الموضوع، يقول:

(أكثرهم - أي الكفار - إلا ما قلّ وندر جهال قاصرون لا مقصرون. أما عوامهم فظاهر؛ لعدم انقذاح خلاف ما هم عليه من المذاهب في أذهانهم، بل هم قاطعون بصحة مذهبهم، وبطلان ساير المذاهب، نظير عوام المسلمين، فكما أن عوامنا عالمون بصحة مذهبهم، وبطلان ساير المذاهب، من غير انقذاح

خلاف في أذهانهم، لأجل التلقين والنشو في محيط الإسلام، كذلك عوامهم من غير فرق بينهما من هذه الجهة، والقاطع معذور في متابعة قطعه، ولا يكون عاصياً وآثماً، ولا تصح عقوبته في متابعته.

وأما غير عوامهم فالغالب فيهم أنه بواسطة التلقينات من أول الطفولية والنشو في محيط الكفر: صاروا جازمين ومعتقدين بمذاهبهم الباطلة، بحيث كل ما ورد على خلافها ردوها بعقولهم المجبولة على خلاف الحق من بدو نشوهم، فالعالم اليهودي والنصراني كالعالم المسلم، لا يرى حجة الغير صحيحة، وصار بطلانها كالضروي له، لكون صحة مذهبه ضرورية لديه لا يحتمل خلافه.

نعم فيهم من يكون مقصراً لو احتمل خلاف مذهبه، وترك النظر إلى حجته عناداً أو تعصباً^(١).

فإذا كان لشخص فرصة أن يبحث، أو اتضح له الحق وعانده، فهذا قد يكون مستحقاً للعقاب لتقصيره أو لعناده.

(١) كتابه المكاسب المحرمة. ج ١، ص ١٣٣-١٣٤.

إذا فالتعددية هنا تعني أن أغلب الناس من أتباع مختلف الأديان والمذاهب معذورون، لعدم وصول الحجة لهم، ولعدم اتضاح الحق أمامهم، والنصوص كثيرة من الآيات والروايات التي تدل على سعة رحمة الله تعالى، وبناء عليه فلا يصح تضييق رحمة الله، ولا تصح الرؤية الانحصارية عن النجاة في الآخرة.

توجد آيات كثيرة يُستشهد بها في هذا السياق، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [سورة الزمر، الآية: ٥٣].

وقد روي عنه ﷺ أنه قال: «أقول يا ربِّ شفِّعني في من وقع في النار، فيقول الله عز وجل: أخرجوا من عرفتم فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد، ثم يأذن الله عز وجل في الشفاعة فلا يبقى نبي ولا شهيد إلا شفِّع، فيقول الله عز وجل: أخرجوا من وجدتم في قلبه زنة الدينار دينار إيماناً، فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد، ثم يشفِّع الله فيقول: أخرجوا من وجدتم في قلبه إيماناً ثلثي دينار، نصف دينار، ثم يقول ثلث دينار، ثم يقول ربع دينار، ثم يقول قيراط،

ثم يقول حبة من خردل، فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد، وحتى لا يبقى في النار من عمل لله خيراً قط، ولا يبقى أحد له شفاعة إلا شفيع، حتى إن إبليس يتناول مما يرى من رحمة الله عز وجل رجاء أن يشفع له»^(١).

بناءً على هذه النظرة، وهذه الرؤية، فأغلب الناس من أتباع الأديان والمذاهب قد يكونون معذورين، ويمكن أن ينجوا من النار ويدخلوا الجنة، وفي تراث أهل البيت توجد روايات مؤيدة لهذا القول كالرواية الواردة عنهم عليهم السلام حول يوم عرفة، «إن الله تعالى يباهي ملائكته عشية عرفة بالحجاج فيقول: انظروهم شعثاً غبراً، اشهدوا أنني قد غفرت لهم»^(٢).

المعنى الثالث: القبول الاجتماعي

بغض النظر عن الحق والباطل وانحصارهما أو انبساطهما، وبغض النظر عن النجاة يوم القيامة وعدمها، فنحن الآن نعيش في هذه الدنيا، كيف ينبغي أن ننظم حياتنا الاجتماعية؟

(١) تفسير ابن كثير. ج ٢، ص ١٥٤.

(٢) كنز العمال. ج ٥، ص ٧٠، حديث ١٢٠٩٩.

كيف ينبغي أن نتعامل مع بعضنا بعضاً؟

يرى أصحاب هذا الرأي بأن على الناس أن يقبلوا ببعضهم بعضاً، ولا يفرض أحدٌ دينه أو مذهبه على الآخر، لأن كل واحد من الأطراف يعتقد أن دينه هو الحق والصواب ويريد فرضه على الآخر، وبالتالي يعيش الناس في صراع ونزاع، فهل نعيش متحاربين طول حياتنا؟! يقتل بعضنا بعضاً!!

عوائد وفوائد القبول الاجتماعي

إن التعددية بهذا المعنى فيها مصلحة وخير للجميع، وعلينا أن نقبلها ونأخذ بها لتحقيق السلم والأمن في مجتمعاتنا البشرية، وذلك للأسباب التالية:

أولاً: إن التعدد أمر واقع، ونحن شركاء في هذه الحياة؛ فلا أحد يدعي أن الله خلق الأرض وخيراتها لفئة خاصة، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾ [سورة الرحمن، الآية: ١٠]، أي لكل الناس، ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٧٠].

وفي مورد آخر بعد أن يتحدث القرآن الكريم عن اختلاف مصير الناس في الآخرة، بين كافرين اختاروا المصالح المادية العاجلة في الدنيا ومآلهم

إلى النار في الآخرة، ومؤمنين أقبلوا على الحق وسعوا إليه فشكر الله سعيهم بالجنة في الآخرة، يقرر الله سبحانه أن هذا الاختلاف بين المصيرين في الآخرة، لا يحرم إحدى الجهتين من التمتع بفرص نعم الله وخيرات الحياة في الدنيا، فكلاهما (كافرين ومؤمنين) يمنحهم الله عطاءه في الحياة ولا يحظره على أي منهما، فخيرات الحياة يشترك فيها جميع البشر بغض النظر عن توجهاتهم الدينية.

يقول تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا * كَلَّا نُمَدُّهُوَ لَاءٍ وَهُوَ لَاءٍ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿﴾

[سورة الإسراء، الآيات: ١٨ إلى ٢٠].

ثانياً: مصلحتنا جميعاً أن نتعاون ونتعايش، ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «صلاح شأن الناس التعايش»^(١)، فإذا قتل بعضنا بعضاً أو ناوأ بعضنا بعضاً، فلن نهناً ولن نتمتع بحياتنا، هذه القناعة

(١) بحار الأنوار. ج ٧١، ص ١٦٧، حديث ٣٤.

وصل لها الأوربيون بعد ما قاسوا من الحروب الدينية، فقرروا غض النظر عن الاختلاف الديني، فهم مختلفون في توجهاتهم، لكنهم متصالحون ومتعايشون في أراضيهم وأوطانهم، يحترم بعضهم بعضاً، وذلك هو ثمرة القبول بالتعددية الدينية.

ثالثاً: التعايش هو الخيار الأفضل للأديان والمذاهب، فإنه يتيح المجال لكل إنسان أن يمارس معتقداته بكل حرية، ويمكنه من عرض عقيدته ومذهبه، وحين يكون الإنسان واثقاً من أحقية دينه فعليه أن يثبت ذلك للآخرين عبر المنطق العلمي، كما يقرر القرآن الكريم ذلك، يقول تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١١١].

ويقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٤٨].

وعلى الإنسان إذا ما أراد مناقشة الآخرين المخالفين له في الدين، أن يحاورهم بأدب واحترام، وبأفضل أسلوب وخطاب، يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ

سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿[سورة النحل، الآية: ١٢٥].

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت، الآية: ٤٦].

وكما يتمسك الإنسان بدينه فإن من حق الآخرين أن يتمسكوا بأديانهم، يقول تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [سورة الكافرون، الآية: ٦].

إن القرآن الكريم لم يتجاهل أتباع الديانات الأخرى، بل ذكرهم في سياق الاعتراف بوجودهم الخارجي ككيانات قائمة في الاجتماع البشري، داعياً الجميع لتعزيز القيم الإيمانية، والتوجه لصالح الأعمال.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٦٢].

وفي آية أخرى يذكر الله تعالى تنوع الوجودات

الدينية، مشيراً إلى استمرارية وجودها في الحياة، وأن الحسم والفصل بينها مؤجل إلى يوم القيامة،

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سورة الحج، الآية: ١٧].

ويوجه الله تعالى أتباع الديانات المختلفة إلى البحث عن القواسم المشتركة فيما بينها بدل التوجه إلى التنازع والاحتراب.

يقول تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٦٤].

ومن مؤشرات القبول بالوجودات الدينية المختلفة ذكر القرآن الكريم معابد تلك الديانات إلى جانب ذكر المساجد، ووضعها جميعاً تحت عنوان أنها يذكر فيها اسم الله.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ

بِبَعْضٍ لَهْدَمْتُمْ صَوَامِعُ وَيَبِعُ وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ
يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿[سورة الحج، الآية: ٤٠].

ومن مسلمات الفكر والفقهاء والتاريخ الإسلامي
استيعاب الأمة وحضارتها للوجودات الدينية
المختلفة، ومنحهم حريتهم الدينية، وحقوقهم
الإنسانية، تجسيدا لقبول التعددية الدينية في الواقع
الاجتماعي.

منهج الأنبياء في إدارة الخلاف الديني

من حق الإنسان أن يبشّر بالرأي الذي يؤمن به، لأنه حينما يؤمن بفكرة، قد يكون عميق الإخلاص لفكرته، فيندفع للتبشير بها، وفي بعض الحالات تصبح الفكرة جزءاً من الذات، فنشر الفكرة هو نوع من الانتصار للذات، ففي المسألة جانب ذاتي.

من جانب آخر فإن حالات التحدي والصراع على المصالح بين المجتمعات البشرية تجعل الرأي أو المعتقد نوعاً من المظلة والهوية، وبالتالي فإن الإنسان حينما يبشر بدينه وبرأيه، إنما هو يخدم ويعزز هويته، ويقوي المظلة التي يستظل بها.

و لكن ماذا حين يخالف الآخرون رأيك؟ ماذا يكون الموقف؟

حينما نعود إلى آيات القرآن الكريم وهي تتحدث

عن مشكلة الخلافات الفكرية، على ضوء دعوات الأنبياء، ورسالات السماء، فإننا نجد معالم واضحة، ومنظومة متكاملة من الهدي، ينبغي أن نتفهمها ونستوعبها.

وفي مقدمة ذلك إشارة واضحة للدور الرئيس للأنبياء والرسل، يقول تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٤٨].

ويقول تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ [سورة الكهف، الآية: ٥٦].

ويخاطب الله تعالى نبيه الأكرم محمد ﷺ بقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [سورة الغاشية، الآيتان: ٢١-٢٢].

ويقول تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [سورة ق، الآية: ٤٥].

فدور الأنبياء الرئيس هو التذكير والتبشير والإنذار،
﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٥٦].

وفي القرآن الكريم حديث مستفيض حول هذا الموضوع، وكيف تعامل الأنبياء والرسل مع من يختلفون معهم أو يعارضونهم، فالأنبياء يأتون بدعوة يعرضونها على الناس، وهناك من يقبلها، وهناك من يرفض الدعوة أو يعارضها.

وقد قدم الأنبياء - وفقاً للتوجيه الإلهي - أنموذجاً رائعاً للبشرية في كيفية التعامل مع الآراء والمعتقدات المخالفة والمناوئة، يمكن أن نقرأها في النقاط التالية:

أولاً: التركيز على الواقعية في التفكير

ينبغي أن تكون واقعياً، مهما آمنت بحقانية دينك وفكرتك أنها الحق والصواب، فإن عليك أن تعلم أن الآخرين لهم أديانهم وآراؤهم، وهم - كما أنت - يرون أن رأيهم هو الأصح والأصوب، فعليك أن تنظر للأمور بواقعية، أنت لا تستطيع أن تغير آراء كل الناس، هناك من سيقبل فكرتك وهناك من يرفضها، فعليك أن تكون واقعياً، ولا تعيش في الخيال، وتتصور أن الناس بمجرد أن تعرض عليهم رأيك،

فإنهم يقبلونه!!

مهما كانت أدلتك وبراهينك، فإن المسألة ليست معرفية محضة، بل تؤثر فيها عوامل أخرى: بيئية، وتربوية، ومصالحية، وهناك تفاوت في الوعي والإدراك عند الناس.

فعليك أن تكون واقعياً، ولهذا فإن الله تبارك وتعالى يخاطب أنبياءه بهذا المعنى: أيها النبي، الدين الذي عندك هو الحق، وما عند الناس باطل، والأدلة التي عندك صادقة، معجزات وبراهين منطقية، لكن عليك أن تعلم أن ذلك غير كاف في تقبل كل الناس لدعوتك وكلامك، هناك من لا يقبل مهما كانت الأدلة!

يخاطب الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بقوله تعالى ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٤٥]، قد تصل الحالة إلى مستوى من التمسك والتعصب الذي يتجاوز الأدلة والبراهين، هذا يجب أن يكون واضحاً عند الإنسان. في آية أخرى يخاطب الله تعالى نبيه ﷺ بأنك

مهما عملت، ولو صعدت إلى السماء أو نزلت إلى أعماق الأرض، لا تستطيع أن تغير كل عقول الناس وأفكارهم، سيكون هناك من له رأي آخر، يقول تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٣٥].

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ من الذين يجهلون هذه المعادلات والحقائق في حياة البشر، وهو خطاب قوي شديد.

ثانياً: الحذر من الانفعال والتأزم النفسي

حينما يكون للإنسان رأي يعتقد بصحته و صوابيته، ويعرضه على من حوله، وله أدلته وبراهينه، لكنه قد يفاجأ بأنهم لا يقبلون منه، هنا قد تحصل حالة من التأزم والتشنج النفسي عند الإنسان،

لماذا لا يقبل هؤلاء الناس؟! !!

هل أنا مقصر في عملي وطرحي؟!!

هل أنا مخطئ في طريقي ونهجي؟!!

الآيات الكريمة تريد أن تعالج هذه المشكلة، فالمسألة ليست أنك على خطأ، وليست أنك مقصر، لكنه واقع يعيشه البشر، فعليك أن لا تتأزم نفسياً.

كان رسول الله ﷺ يبذل كل جهده من أجل هداية أولئك الكفار والمشركين، وما كان يُقصر في الدعوة والتبيين، وهم يعيشون الضلال والشقاء، ويريد إنقاذهم، فما كانوا يقبلون منه، وكان يتألم ويتمزق نفسياً، ويمكن تمثيل ذلك كحال إنسان عطشان يوشك أن يموت من العطش، وأنت توفر له الماء البارد، لكنه يعاند ولا يشرب الماء، أو مريض يوشك أن يموت من مرضه، وأنت توفر له الدواء والعلاج فيرفض!

أنت تتألم وتتساءل ماذا به؟! لماذا لا يقبل لمصلحته؟!

النبي ﷺ كان يعيش في بعض الأحيان هذه الحالة، فيأتيه التوجيه من الله سبحانه يقول تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآيتان: ٣-٤].

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ بخع النفس يعني هلاك النفس من شدة الغم، لا يحق لك أن تتعامل مع نفسك بهذه الطريقة.

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ [سورة فاطر، الآية: ٨] أنت قم بواجبك، والمسألة ترتبط بهم ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٧٢].

ثالثاً: التزام النهج الصحيح في الدعوة

في بعض الأحيان يتأذى الإنسان من موقف المخالفين أو المعارضين، مما قد يدفعه للممارسة الخطأ،

قال أحد العلماء: ذهبت إلى قرية من القرى، فرأيت عالماً يخطب في جماعته، يصب عليهم جام غضبه، يسبهم ويشتمهم، وسألته مستنكراً: ما هذا الخطاب؟!!

فقال: آذوني، وكل يوم أنصحهم فلا يستجيبون!

فقلت له: إذن تسبهم أو تضربهم بالعصا؟!

أنت عليك أن تلتزم النهج السليم في الدعوة وال طرح، الله تعالى يخاطب نبيه ﷺ بقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل، الآية: ١٢٥].

رسول الله ﷺ مع كل ما عمله معه المشركون من مخالفة وعناد، حين جاءه الملائكة، يارسول الله: ادع عليهم، كما ورد في بعض الروايات، رفع يديه ثم قال: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون»^(١).

المصلح يريد أن يرشد الناس إلى الطريق الصحيح، فإذا لم يقبلوا، ينبغي أن يحافظ على أعصابه ويلتزم بالنهج السليم في الدعوة.

يتحدث القرآن الكريم عن نبي الله صالح ﷺ، ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ بعد نقاش وكلام طويل عريض مع قومه، رآهم مصرين على الانحراف والكفر: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأۡقُومُ لَقَدْ أَبۡلَغْتُكُم رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمۡ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّٰصِحِينَ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٧٩].

(١) بحار الأنوار ج ٣٥، ص ١٧٧

ويقول تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ
أَسَلَّمْتُمْ فَإِنِ اسَلَّمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ
الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٢٠].



من وحي السيرة النبوية

كان بعض الأصحاب حول الرسول ﷺ يفعلون تجاه بعض المشركين، ويقولون كلاماً قاسياً، فكان الرسول ﷺ ينهاهم قائلاً: «لم أبعث طعاناً ولا لعاناً ولكن بعثت داعياً ورحمة»^(١).

وجاء في السيرة النبوية أنه لما قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ، دخلوا عليه مسجده بعد صلاة العصر، فحان وقت صلاتهم، فقاموا يصلون في مسجده، فأراد الناس منعهم، فقال ﷺ: «دعوهم، فاستقبلوا المشرق، فصلوا صلاتهم».

هذه الرواية موجودة في السيرة النبوية، وذكرها ابن قيم الجوزية في كتابه زاد المعاد في هدي خير

(١) تفسير السمرقندي. أبو الليث السمرقندي، ج ١، ص ٢٧٦.

العباد^(١)، واستنتج منها مسائل فقهية متعددة، منها:

جواز دخول أهل الكتاب مساجد المسلمين.

تمكين أهل الكتاب من صلاتهم بحضرة المسلمين، وفي مساجدهم أيضاً، إذا كان ذلك عارضاً، ولا يُمكنون من اعتياد ذلك^(٢).

وهذه الحادثة تنسجم مع مبادئ الإسلام والقرآن، الذي يقول: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، وفي آية أخرى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، ويقول تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾. فمبادئ القرآن كلها تؤكد على الحرية الدينية، وأن الإنسان حرٌّ في معتقداته الدينية، وفي ممارساته وشعائره العبادية، بل إن الحرية الدينية هي من أهم الحريات عند الإنسان؛ لأن التدين في أعماق نفس الإنسان، وحينما يُمنع من ممارسة تدينه وشعائره الدينية، فإنما تُصادر حرية من أهم حرياته، وحقٌّ من أهم حقوقه الإنسانية.

وفي تشريعات الإسلام أن أتباع الديانات الأخرى، لهم الحرية في أماكن عباداتهم: كنائسهم، بيوعهم،

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد. ج ٣، ص ٦٢٩.

(٢) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٦٣٨.

معابدهم. ولا يصحّ التضييق عليهم، ولا منعهم من ممارسة حريتهم الدينية، فذلك لون من ألوان الظلم وقد توعد رسول الله ﷺ بقوله: «من آذى ذمياً فأنا خصمه»^(١)، و«من ظلم معاهداً كنت خصمه»^(٢).

الشريعة الإسلامية تؤكد أن مصادرة الحريات الدينية من أبرز ألوان الظلم والتعدي،

جاء في السيرة النبوية أن رسول الله ﷺ كتب إلى أسقف نجران، رسالة يلتزم فيها للمسيحيين بحماية معابدهم وحريتهم الدينية، هذا نصها:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبي للأسقف أبي الحارث وكل أساقفة نجران، وكهنتهم، ورهبانهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل وكثير، جوار الله ورسوله، لا يغير أسقف من أسقفته، ولا راهب من رهبانته، ولا كاهن من كهنته، ولا يغير حق من حقوقهم، ولا سلطانهم، ولا ما كانوا عليه من ذلك، جوار الله ورسوله أبداً ما أصلحوا ونصحوا عليهم

(١) كنز العمال، ج ٤ ص ٣٦٢.

(٢) مستدرک الوسائل، ج ١١ ص ١٦٨.

غير مبتلين بظلم ولا ظالمين»^(١).

وقد سار خلفاء المسلمين الأوائل على نفس النهج، ومن ذلك عهد الخليفة عمر بن الخطاب إلى أهل إيلياء - القدس: «أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسائر ملتهم، لا تسكن كنائسهم، ولا تهدمن ولا ينتقص منها، ولا من حيزها، ولا من صليبيها، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم»^(٢).

وقد ذكر الفقهاء: أن اليهودي إذا كان يعتقد حرمة العمل يوم السبت، فلا يصح للمسلمين أن يجبروه على العمل يوم السبت. وأن المسيحي إذا كان في بلاد المسلمين، وكان من دينه الالتزام بالذهاب إلى الكنيسة في يوم الأحد، فلا يصحُّ منعه عن ذلك^(٣).

كما أن موثيق حقوق الإنسان كلَّها تنص على حق الإنسان في أن يعتقد ما يقتنع به من دين ومذهب ورأي، وأن يمارس شعائره وحرسته الدينية، وأن

(١) البداية والنهاية، ج ٥ ص ٥٩.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٣ ص ١٠٥.

(٣) يوسف القرضاوي. غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، الطبعة السادسة ١٤١٥هـ، (بيروت: مؤسسة الرسالة)، ص ٤٣.

على الحكومات في كل بلد أن تحمي هذه الحقوق لمواطنيها، ولا تسمح بالنيل أو الانتقاص منها، فقد تكون في البلد أكثرية دينية، في ظل وجود ديانات أخرى، من حقهم أن يلتزموا دينهم، وشعائرهم، وممارساتهم، وإن كانوا أقلية، وكذلك الحال إذا كانت هناك أكثرية مذهبية، فإنه لا يبرر الانتقاص من الحريات الدينية، للأقليات المذهبية الأخرى.

هذا هو الأدب القرآني الحضاري، يلزم الله تعالى به أنبياءه، مع القطع بصحة وصدق دعوتهم الموحاة إليهم من الله، أما أنا وأنت حين تكون عندنا بعض الأفكار، فإنما هي اجتهادات شخصية، يمكن أن تكون صحيحة أو خطأ، النبي القاطع بصحة كلامه مع ذلك يتعامل بهذا النهج ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾، في المقابل كيف نتصرف نحن إذا صارت عندنا فكرة معينة، حول قضية عقديّة، أو فقهية أو سياسية، وفي بعض الأحيان قضايا جانبية حول موضوع تاريخي، حصلت هذه الحادثة أو لم تحصل، حدث هذا الموضوع أو لم يحدث، هذا العمل مناسب أو غير مناسب، أنا أطرح رأيي وأنت تطرح رأيك، قد نتفق وقد نختلف.

يقول الشاعر:

نَحْنُ بِمَا عِنْدِنَا وَأَنْتَ بِمَا
عِنْدَكَ رَاضٍ وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفٌ

لك رأيك ولي رأيي، لماذا نتعادي؟!

هذا خلاف التوجيه القرآني، فقد أراد الله سبحانه وتعالى لهذه الدنيا أن تكون دار امتحان.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يونس، الآية: ٩٩]، إرادة الله هكذا.

والآية الكريمة تقول: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [سورة الرعد، الآية: ٣١].

هناك تعددية في حياة البشر، هناك آراء أخرى، وعلى الإنسان أن يتكيف مع هذه الحقيقة، ويتعامل مع الآخرين بالحسنى، وإن اختلفوا معه في الدين أو الرأي.

ما أحوجنا إلى هذا الهدي القرآني، حتى نستطيع إدارة خلافاتنا الفكرية والعقدية، عند اختلاف الآراء والمذاهب، وعندما نختلف في الآراء السياسية،

علينا أن نهتدي بهذا الهدي.

واقع المسلمين

حينما نقرأ واقع المسلمين اليوم، نجد بوناً شاسعاً بين أسلوب التعااطي مع الاختلاف الديني والفكري وبين ما يدعو له القرآن الكريم، وكان يجب على المسلمين أن يأخذوا من هذه الآيات درساً في طريقة تعاملهم مع اختلاف الآراء والمعتقدات فيما بينهم كمسلمين، حينما تتعدد المذاهب وتتنوع الآراء والقناعات، وفيما بينهم وبين غيرهم، ولكن بدل أن يأخذ المسلمون الموقف من الخلافات الفكرية والعقدية من هدي القرآن، فإنهم أخذوه من بيئة الاستبداد التي عاشوها؛ لأن المسلمين في أغلب عصورهم، كانوا يعيشون في ظل الاستبداد السياسي والفكري، فتشبعوا بهذه الحالة، فما عاد الموقف من الاختلاف العقدي أو الفكري، نابغاً من هدي القرآن، وإنما هو من وحي ما عاشوه وتشرّبوه من حالة استبدادية في حياتهم.



المجتمعات الغربية والتعددية

نجد المجتمعات الأخرى المتقدمة، ليس عندهم مشكلة في اختلاف الآراء والمعتقدات، كل واحد يُبشِّرُ بديانته، ويمارس دينه ومذهبه.

رأيت بعض المبشرين في أمريكا، يأتي ويطرق الباب، ويقول لك: أنا من الديانة الفلانية، أحب أن أطرح عليك ديانتني ورأيي هل تسمح لي؟ هل تحب أن تسمع مني؟ إذا قلت له: لا، يقول لك: شكراً ويذهب إلى منزل آخر.

في المطارات .. في الحدائق والأماكن العامة، كل واحد عنده فكرة يطرح فكرته، والناس أحرار يقبلون أو يرفضون.

المجتمع الغربي وصل إلى مستوى رفيع من النضج في هذا المجال، فأصبح يؤمن بحقوق

الإنسان وحرية المعتقد، وحرية التعبير عن الرأي. هذا نضج في تلك المجتمعات، لكن مجتمعاتنا لا يزال أبنائها يتحاربون ويتقاتلون على اختلاف في المذهب أو الرأي، مع أن قرآنا يطرح لنا هذا الهدى، وخلاصته: أن على الإنسان أن يقبل التعددية، وأن يقبل وجود الرأي الآخر.

واجب الدولة حماية الحريات الدينية

من أهم واجبات الحكومة - أي حكومة - أن تحمي حقوق كل مواطنيها، وأن تحمي الحريات الدينية للجميع.

صحيح أن الأمر يحتاج إلى تقنين وتنظيم، إلا أن التقنين والتنظيم ينبغي أن يُراعى العدل والإنصاف، ليكون من أجل مصلحة الجميع، ومن أجل حفظ النظام، وليس الانتقاص من حقوق فئة لصالح فئة أخرى.

ونحن الآن نعيش في عصر العولمة، وعصر دعوات حقوق الإنسان، والدفاع عن حقوق الأقليات، وحوار الأديان، والحوارات الوطنية، لذلك ليس مقبولاً أبداً، أن تكون هناك ضغوط على

بعض المواطنين، الذين يتعبّدون بمذهبهم، بأن يكون لهم مسجد يصلون فيه، أو مجالس يقيمون فيها شعائر مذهبهم؛ لأن ذلك لا يؤذي أحداً، ولا يضرّ بأحد، بل إن منع هذه الشعائر هو الذي يضرّ بالوطن؛ لأنه يُؤلّد الغضب والسخط والكرهية، كما يعطي الفرصة للأعداء كي يشوّها سمعة البلد، وأن تصدر التقارير من المنظمات الحقوقية والإنسانية، وهي تتحدّث عن انتهاك الحريات الدينية، وانتقاص حقوق الأقليات، ويكون أرضية لوجود الحساسيات، والنفور بين الأطراف المختلفة.

ولا يخفى على أحد وجود متشدّدين في المجتمعات السنية والشيعة، فقد لا يعجب البعض أن تكون في أوساطهم مساجد أو مراكز دينية لأهل المذهب الآخر، وهنا يأتي دور الحكومة من أجل أن تحفظ العدل والأمن والاستقرار، فتضع تقنينات بما يراعي حقوق ومصالحة الجميع، فليس مقبولاً أن يُحرم آلاف من المواطنين السنة في منطقة شيعية، أو من الشيعة في منطقة ذات أغلبية سنية، من أن تكون لهم مساجدهم، ومراكز إقامة برامجهم الدينية، في الوقت الذي تتيح فيه الحكومات الغربية الفرصة

للجاليات الإسلامية في بلدانها، لإقامة مساجدهم، ومؤسّساتهم الدينية، بمختلف مذاهبهم.

أما القول بأن المساجد مفتوحة ليصلي فيها السنة والشيعية، ولا داعي لوجود مساجد للأقلية السنيّة أو الشيعية، فهو تبرير غير صحيح، يراد منه تذويب الأقلية، وعدم الاعتراف بهويّتها المذهبية؛ لأن واقع التنوع المذهبي في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، قائم على أساس اختصاص كل طائفة بمساجدها.

كما ليس مقبولاً أن يسجن شخصٌ لأنه أقام مجلس عزاء في بيته، أو أقام فيه صلاة جماعة، حين لا يكون في الحيّ مسجد لهم، فالناس مسلّطون على أموالهم وأنفسهم، طالما كان ذلك في إطار مراعاة القانون العام للدولة، ولا يضرّ بأحد.

إننا نأمل ألاّ تتاح الفرصة للتوترات والتشنجات، وللمغرضين الذين يريدون أن يصطادوا في الماء العكر، وللجهات المعادية التي تريد أن تشوه سمعة الإسلام والمسلمين، نأمل أن تعالج مثل هذه الأمور بالحكمة والعدل، لضمان حقوق الجميع، وحفظ الأمن والاستقرار لأوطان ومجتمعات المسلمين.



المحتويات

٧	تقديم
١١	في معنى التعددية الدينية.....
١٣	لماذا تتعدد الأديان والمذاهب؟
١٧	التعددية طبيعة بشرية
٢١	من الاحتراب الديني إلى التسامح
٢٥	فلسفة التعددية وتجلياتها.....
٣٥	عوائد وفوائد القبول الاجتماعي
٤١	منهج الأنبياء في إدارة الخلاف الديني
٥١	من وحي السيرة النبوية
٥٩	المجتمعات الغربية والتعددية
٦٤	المحتويات.....